مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 7 العدد 2 / ديسمبر 2021
ص ص 179–188

المناهج اللسانية العربية بين واقع النشأة وآفاق التطور

Arabic Linguistic Approaches between the Reality of Origin and the Prospects for Development

عبد الحليم معزوز
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة، (الجزائر)،
a.mazouz@centre-univ-mila.dz

الاستلام: 2021/10/07 القبول:2021/12/13 النشر: 2021/12/31

ملخص:

عرف الدرس اللساني العربي تطورا كبيرا منذ اتصال الثقافة العربية باللسانيات الحديثة في العالم الغربي عن طريق البعثات العلمية، إذ نشطت عملية التأليف في هذا العلم الحديث قصد التعريف به وبمختلف مدارسه ومناهجه، ثم انتقل هذا النشاط من مجرّد التعريف بهذا العلم وترجمة المؤلفات الغربية التي أسّست له إلى النظر في اللغة العربية بالاعتماد على معطيات اللسانيات، سعيا لجعل البحث في هذه اللغة يتّسم بالعلمي.

وقد اتّجه هذا النظر في اللغة إلى البحث في التراث اللغوي العربي من خلال الموروث اللغوي الذي خلفته ثلة من علماء العربية القدامى- خاصة ما تعلّق منه بالنحو- حيث حاولت الجهود العربية الوصول إلى وضع نظرية جديدة للنحو العربي تساير اللغة العربية في شكلها الحديث وتسعى إلى تيسير النحو، فبرز في هذا المجال عدّة اتجاهات تأثّرت في عمومها بالنظريات اللسانية الغربية، إذ صُنِّفت هذه الجهود في تيّارات تنظر إلى اللغة العربية وفق المبادئ التي بُنيت عليها تلك المدارس الغربية، وأهم هذه الاتجاهات ما يأتي: الاتجاه الوصفي البنوي، والاتجاه التأصيلي، والاتجاه التفسيري أو التوليدي، والاتجاه الوظيفي، والاتجاه التوليفي.

نحاول من خلال هذا المقال الوقوف على واقع تلك المناهج اللسانية العربية من خلال الغوص في ظروف نشأتها، ثم البحث في أصولها النظرية ومبادئها الإجرائية قصد النظر في قدرتها على مسايرة التطورات الحاصلة في البحث اللساني، واستشراف مآلها في سياق البحث اللساني المعاصر.

الكلمات المفتاحية :اللسانيات العربية؛ المناهج اللسانية؛ النشأة؛ الواقع.

Abstract:

The Arabic linguistic lesson has developed greatly since the connection of Arab culture to modern linguistics in the Western world through scientific missions، as the process of authorship in this modern science was active in order to introduce it and its various schools and methods، and then this activity moved from the mere introduction of this science and the translation of western literature founded to look at Arabic based on linguistic data، in an effort to make the research in this language scientific.

This consideration of language has tended to research the Arabic linguistic heritage through the linguistic heritage left by a group of ancient Arabic scholars - especially related to grammar - where Arab efforts have tried to reach the development of a new theory of Arabic grammar that corresponds to the Arabic language in its modern form and seeks to facilitate grammar، and emerged in this area several trends that were influenced in general by Western linguistic theories، as these efforts were classified in currents that look at the Arabic language in accordance with the principles built in this area. It's got those Western schools on it، the most important of these trends are: the structural descriptive trend، the rooting trend، the interpretive or obstetric trend، the functional trend and the synthesis trend.

Through this article، we try to identify the reality of these Arabic linguistic approaches by diving into the circumstances of their origins، and then researching their theoretical origins and procedural principles in order to consider their ability to keep pace with developments in linguistic research and to anticipate their fate in the context of contemporary linguistic research.

Keywords: Arabic linguistics; linguistic approaches; genesis; reality.

1. مقدمة:

بعد مرور مدة طويلة من العطاء والإنتاج الفكري ميّزا البيئة العربية،وجعلا بعض الباحثين يذهبون إلى حد الجزم أن تكون أية لغة قد نالت من الاهتمام والبحث فيها ما نالته اللغة العربية، عاشت المجتمعات العربية سباتا فكريا- تحت تأثير الحملات الاستعمارية الأوربية- وانتقلت عوامل الازدهار إلى أوربا بعدما عرفت بدورها نهضة في شتى المجالات، وخاصة في العلوم والصناعات.ثم سنحت الفرصة من جديد للعرب أن ينظروا في لغتهم ويبحثوا فيها، لكن بشكل مختلف عما عرفه أجدادهم وفي ظروف مختلفة عن الدراسات العربية القديمة.

وقد كانت هذه النهضة العربية نتيجة حملة نابليون بونابارت على مصر، وتخللتها محاولات الإنجليز التغلغل في المجتمع المصري، فكان من ذلك أن دخلت ألفاظ جديدة إلى اللغة العربية، وكانت هذه الألفاظ "تتعلق بشتى علوم وفنون وصناعة المدنية العصرية كالمخترعات وأجزائها وشتى العقاقير والأدوات وأصناف المطاعم والمشارب وأوانيها وضروب الأثاث وما إليه، ومظاهر الحياة الحضرية من ألعاب ومجامع ونحوها"(غلفان، 2006).

فنتج عن ذلك انتعاش في شتى ميادين الحياة، وانكب العرب على هذه المستجدات يحاولون الاستفادة منها ومواكبة ما كان يصلهم من مظاهر التحضر عن طريق نقلها إلى اللغة العربية لنشرها في المجتمع، فكان أن ظهرت الترجمة كنشاط اعتمده العرب في تلك الفترة من أجل هذا النقل؛إذ "تطلبت الحركة الفكرية الجديدة بمصر وغيرها من الأقطار العربية من اللغة العربية جهودا جبارة لمواكبة مظاهر التحولات التي عرفتها مناحي الحياة العربية، مما نشأ معه حركة لغوية جديدة تمحورت أساسا حول الترجمة إلى العربية وإيجاد المصطلح العربي الملائم"(غلفان، 2006).

بالموازاة مع دخول المدنية الغربية إلى مصر على يد نابليون، ومحاولة المصريين مواكبتها، ساهم محمد علي الذي حكم مصر في هذه النهضة الفكرية، في إرساء النهضة العربية من خلال البعثات العلمية التي كان يوفدها إلى أوربا، وتشجيع الترجمة إلى اللغة العربية، وأُنشئت المدارس والمعاهد العلمية بإشراف العلماء ممن استفادوا من تلك البعثات على غرار رفاعة الطهطاوي (1801-1879م) الذي أدار مدرسة الألسن والترجمة في مصر التي أُنشئت سنة 1837م، محاكيا في ذلك نموذج مدرسة الألسن الشرقية بباريس التي تأسست سنة 1795م، كما برزت أيضا مدرسة باردو العسكرية في تونس التي تأسست سنة 1840م، وكانت تعنى بترجمة النصوص والمؤلفات الأوربية إلى اللغة العربية.

فقد كان للباحثين الذين استفادوا من البعثات العلمية إلى أوربا، في عهد محمد علي ومن تلاه ممن حكم مصر، الأثر الكبير في نشر العلوم وإدخالها إلى الحضارة العربية، أو فلنقل دخولها من جديد بعد عصور طويلة من الجمود والركود.

ولم تكن مصر وحدها من عرف هذه النهضة-مع أنها تعد مهدها ومركزها- بل كان لبنان من الرواد في النهضة الفكرية، ولعل ما ساعده على ذلك عوامل عدة منها "حركة التحرر الوطني المبكرة التي خاضها لبنان قبل غيره من البلدان العربية، وطبيعة تكوين المجتمع اللبناني المتجلية في شرائح

عرقية ودينية ولغوية متنوعة.كما كان اللبنانيون في مهاجرتهم بين مشرق ومغرب قد خالطوا الشعوب وتقبلوا في مختلف الحضارات. وكانت المطابع قد كثرت وكثرت الجرائد (...) وبدا في الألفة والمجتمع والمعاش ألفاظ لا عهد لجماعتنا بها"(غلفان، 2006).

يُضاف إلى العوامل السابقة عامل آخر، لا يقل أهمية عنها في تنوير العقل العربي وبعثه من جديد، وهو الدور الذي أدّاه المستشرقون في نقل المناهج والمعارف الغربية إلى الثقافة العربية عندما قامت مصر باستقدامهم للتدريس في المعاهد والمدارس التي أنشأتها، فكان لهم الأثر الكبير في نشر العلوم والمعارف ونقلها إلى الطلبة الذين لم يكن لهم حظ الهجرة إلى أوربا وبقوا يدرسون في المؤسسات داخل الوطن.

بدأ عصر جديد في المجتمعات العربية - باجتماع العوامل السابقة- بدءا بمصر ودخلت الثقافة العربية طورا آخر حيث تعرفت من جديد –ولو في صورة مختلفة- على العلوم التي كانت هي السباقة إلىتأسيس أصولها الأولى، ثم استلمها الغرب فيما بعد وطوروها في عصر الركود الفكري العربي كالطب، والرياضيات، والفلك، والعلوم الاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها.

2. النهضة اللغوية في الثقافة العربية:

يُجمع الدارسون المهتمون بالبدايات الأولى لانتقال الفكر اللغوي الحديث إلى المجتمع العربي والمصري على سبيل التحديد، أنه لا يمكن تحديد الفترة الزمنية التي حدث فيها هذا الانتقال بشكل دقيق، لكنهم يربطونه بالبعثات العلمية التي قام بها محمد علي لفائدة عدد من الطلبة المصريين، وإسهامات رفاعة الطهطاوي الذي أوفد إلى أوربا واعضا لهؤلاء الطلبة الشباب الذين استفادوا من هذه البعثات(غلفان، 2006)، لكن كانت له اهتمامات في اللغة موازاة مع مهمته الأساسية التي من أجلها سافر إلى فرنسا؛ "فقد أثار في بعض كتبه الاهتمام بدراسة اللغات واللغة الفرنسية أثناء بعثته هناك ودعا إلى إنشاء مجمع للغة العربية على غرار المجمع العلمي الفرنسي، كما ظهرت بعض أفكار الدراسة اللغوية الحديثة في مقالات نشرها المقتطف وفي كتابات جورجي زيدان الذي نشر في فترة مبكرة كتابين في اللغة أحدهما كتاب "الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية" (1886م) والثاني "اللغة العربية كائن حي"(خليل، 1996).

فقد ساهمت هذه البعثات العلمية في تعرف المجتمع العربي على مستجدات البحث العلمي في اللغة من خلال احتكاك هؤلاء الطلبة بعلماء اللغة في أوربا، وكذلك فعل من تلاهم من الطلبة الذين احتكوا برواد المدارس اللغوية في أوربا خاصة،فعادوا ومعهم مناهج جديدة في البحث اللغوي. أو كما حدث مع رفاعة الطهطاوي الذي تأثر كثيرا بالمستشرق الفرنسي دو ساسي (DE SACY) (1758- 1838م)، "ولعل ما حمله المبعوثون إلى أوربا من أفكار الحضارة الغربية التي كانت تقوم على استيعاب مسيرة التاريخ البشري وتكوين رؤية شاملة تسهم في حفز المجتمعات الإنسانية إلى الخروج من ظلمات العصور الوسطى إلى آفاق أخرى جديدة- يبدو أن ذلك أثر حاسم في بزوغ فجر النهضة العربية الحديثة"(موسى، 2002).

أما من لم يسعفه الحظ في السفر إلى أوربا، ومعايشة التطور الحاصل في جميع المجالات، فقد تلقوا تكوينا في الجامعات المصرية، إذ أُنشئت في مصر الجامعة الأهلية (1908م)، التي كان لها "أثر في تداول وإشاعة جانب من الدراسة اللغوية الأوربية، وزاد هذا الاهتمام عقب تولي الدولة أمر الجامعة (1925م) وكان علم اللغة التاريخي المقارن للغات السامية هو المنهج السائد في دراسة وتدريس اللغات طول هذه الفترة وبعدها أيضا. إذ كان هذا الفرع من الدراسة اللغوية من المواد الأساسية التي تدرس في قسم اللغة العربية

واللغات الشرقية بكلية الآداب بالجامعة المصرية"(خليل، 1996).

وتولى عدد من المستشرقين الذين استقدمتهم الجامعة المصرية مهمة التدريس والبحث في فقه اللغات السامية، وعلى يدهم تكوّن مجموعة من الباحثين، وكان معظم هؤلاء المستشرقين ألماناً، من أمثال "أنو ليتمان" و"بول كراوس" و"شاده"، وأشهرهم "برجشتراسر" صاحب كتاب "التطور النحوي للغة العربية"، حيث كان هذا الكتاب "ممثلا لهذا الاتجاه التاريخي المقارن في فقه اللغات السامية فهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات ألقاها في الجامعة المصرية عام (1929م). وفي هذا الكتاب نجد المنهج التاريخي المقارن مطبقا على اللغة العربية بالإضافة إلى بعض أفكار البنيوية الوصفية"(خليل، 1996)، فقد أسهم هؤلاء المستشرقون في التعريف بالمنهج السائد في أوربا آنذاك، وتكوين باحثين عرب،ومحاولة إرساء منهج جديد في دراسة اللغة العربية مختلفا عما قام به علماء اللغة القدامى من خلال ربطها ومقارنتها بشقيقاتها من اللغات السامية، فقد كان لهم دور فعّال في ما عرفه الدرس اللغوي العربي الحديث من نهضة فكرية ومنهجية.

3. الإطار الفكري لظهور اللسانيات في الثقافة العربية:

ظلّ البحث اللغوي في البلاد العربية في مجال النحو والصرف متبعا المناهج التقليدية متمثلة في المنهج التاريخي المقارن، حتى إن مصطلح (علم اللسان) كان مقترنا بهذه الدراسات التاريخية، كما اشتهر أيضا مصطلح (فقه اللغة) للتعبير عن الجهود اللغوية للمستشرقين والتي كانت تدور حول دراسات اللغات السامية والمقارنة فيما بينها إلى أن بدأ عدد من الطلبة المصريين المستفيدين من البعثات إلى أوربا ممن تخصصوا في علم اللغة يعودون، ويبشرون بمنهج جديد في دراسة اللغة، متأثرين في ذلك بآراء أساتذتهم في أوربا ومتتبعين النظريات اللغوية التي تكونوا فيها، فعادوا إلى البلاد العربية محملين بأفكار وإجراءات جديدة لم تعرفها هذه البلاد سابقا، فكانت هذه الأفكار والإجراءات في غالبها تحمل في طياتها ثورة على نمط الدراسة السائد في تلك الفترة سواء عند التراثيين أو المجددين المتبعين للمستشرقين، ومن هنا فقد عكف هؤلاء الطلبة العائدين على وضع مؤلفات ترنو إلى التعريف بالمنهج الجديد.لكن الغريب في الأمر أن التعريف بهذا المنهج "جاء من عالم في الاجتماع هو الدكتور علي عبد الواحد وافي. الذي نشر عام (1941م) كتابين أحدهما بعنوان علم اللغة والآخر بعنوان فقه اللغة"(خليل، 1996).

ثم توالت بعد ذلك المؤلفات التي أخذ أصحابها على عاتقهم مهمة التعريف بهذا المنهج الجديد في دراسة اللغة، والذي ظهر في أوربا، وعرف انتشارا واسعا في أرجائها وذهب بعضهم إلى حد نقد النحو العربي مستندا في ذلك على حصيلته المعرفية الأوربية. وفي المقابل فقد كان في البلاد العربية من نادى بضرورة إعادة إحياء التراث اللغوي العربي والتمسك بما جاء به الخليل وسيبويه وغيرهما من أئمة النحو العربي، وعدم الانسياق كليا وراء الدراسات الغربية، ورفضوا فكرة تطويع اللغة العربية وقواعدها لهذه المناهج الغربية الغربية عن الفكر العربي، فيما ظهر فريق ثالث يدعو إلى محاولة قراءة النحو العربي وفق المناهج الغربية، وبذلك تفادي خلق قطيعة مع الموروث اللغوي من جهة، ومن جهة أخرى، الحرص على عدم التقوقع في التراث وبذلك تضيع فرصة الارتقاء بالدراسة اللغوية العربية والتجديد فيها.

4.المناهج اللسانية العربية الحديثة:

بدأت تظهر في البيئة العربية مجموعة من المذاهب يمثلها ثلة من الدارسين العرب نتيجة لهذا الواقع الجديد الذي ميز الدرس العربي، والتطورات التي طرأت على الدرس اللساني في أوربا، وتواصل وفود الطلبة العرب على الجامعات

الأوربية والأمريكية، وبدأت تظهر علاقة بين المناهج اللسانية الغربية والبحث اللساني العربي من خلال ما قدمه أعلام الدراسات اللسانية العربية في المشرق والمغرب أمثال : عبد القادر الفاسي الفهري وأحمد المتوكل، ومحمود السعران، وكمال بشر، وتمّام حسّان، ورمضان عبد التواب ونهاد الموسى، وعبد الرحمن الحاج صالح، وسعد مصلوح، وعبد القادرالمهيري، ومازن الوعر، وميشال زكريا، وغيرهم ممن قدموا تجارب رائدة في حقل الدراسات اللسانية العربية؛ "إن اللسانيين العرب الذين درسوا اللسانيات والصوتيات في جامعات أوربية وأمريكية وانعكست عليهم صور الواقع اللغوي الذي عاشوا فيه، فهناك من تأثر بنظرية أو نظريات لغوية دون أخرى فبرزت في كتاباته ميوله نحو مدرسة لغوية أوربية أو أمريكية (...) وحيث إن النظريات اللغوية قد ظهرت على مراحل متدرجة، فقد كان لكل فترة طائفة من الباحثين العرب ممن مروا بها وتأثروا بواضعي هذه النظريات أو طلابهم فعملوا بعدئذ على تطبيق هذه النظريات على اللغة العربية"(غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس لبنظرية والمنهجية، د.ت) ، ويمكن حصر أهم هذه المذاهب والمناهج اللسانية العربية فيما يأتي:

4. 1 المنهج الوصفي التقريري:

يعتمد أصحاب هذا الاتجاه على "المنهج البنيوي الوصفي التقريري في دراسة النحو دراسة شكلية تُستبعد منه نظرية العامل والتقدير"(الملخ، 2000)، ومعنى هذا أن الوصفية تقوم على دراسة الواقع اللغوي ووصفه دون التعليل لظواهره أو محاولة تفسيرها، ومن هنا فقد كان"اعتبار دراسة اللغة دراسة شكلية خارجية هي المنهج الأسلم في وصفها نحويا وصرفيا، وصوتيا؛ لذلك ينفرون من التعليل القائم على التأويل، والتقدير، والمقايسة العقلية لا الشكلية بين ظاهرتين أو حكمين، لأن العلة المقبولة عندهم تلخصها قوله: «هكذا نطقت العرب»"(الملخ، 2000).

ويعد كل من إبراهيم أنيس، وعبد الرحمن أيوب، وتمّام حسّان أهم الدارسين العرب الذين تبنوا المنهج الوصفي في بحوثهم التي قدموها للقارئ العربي.

يتلخص أسلوب الوصفيين في النظر والتحليل، وتتوقف نجاعة أية عملية وصفية على مدى مناسبة تطبيقها على المسألة اللغوية، "فإن كان تطبيقها مناسبا للمسألة كانت أسلوبا ناجحا في دراستها، وإن كان تطبيقها هدر لبعض العناصر اللغوية، كانت أسلوبا غير ناجح في دراسة المسألة، مع الإقرار بأن معيار النجاح أو عدمه أمر نسبي يتفاوت فيه الباحثون"(الملخ، 2000).

في المقابل، فإن ثلة من اللسانيين العرب الذين تبنوا هذا المنهج قد انساقوا وراء إجراءاته انسياقا جعلهم يرفضون الدراسات اللغوية العربية القديمة متمثلة في النحو ونقدوه إلى حد التهجمعليه أحيانا، ورفض الكثير من نتائجه خاصة ظاهرة التعليل، وقد يعود ذلك أساسا إلى تأثر الوصفيين العرب بالوصفيين الأوربيين،إذإنهم وجدوا "فيما صحّ من نقد الأوربيين لتراثهم النحوي ينسحب على التراث النحوي العربي، كما صحّ عندهم أن التراث النحوي العربي تضمّن العيوب نفسها التي تضمنّها التفكير النحوي الأوربي القديم. ولم يتخذ هذا المنطلق في عمل الوصفيين العرب شكل الافتراض، بل كان حاضرا لديهم حضور البديهة، فكان بذلك منطلق كل دراساتهم"(علوي، 2005).

فقد شهد منتصف القرن العشرين، "وخاصة العقد السادس والسابع منه هجوما من بعض الباحثين على جوانب من النحو العربي بتأثير تبنّي معظمهم المنهج البنيويّ الوصفيّ، مثل الدكتور عبد الرحمن أيّوب، في كتابه: "دراسات في النحو العربي" الذي نشره أول مرة سنة 1957م، والدكتور تمّام حسّان في كتابه: "اللغة بين المعيارية

والوصفية" الذي نشره أول مرة سنة 1958م، والدكتور إبراهيم السامرائي في كتابه"الفعل: زمانه وأبنيته" الذي نشره أول مرة سنة 1966م"(الملخ، 2000).

أما عن أهم الأمور التي عاب الوصفيون العرب النحو العربي عليها، اعتمادا على المنطلقات والأسس التي اعتمدها الأوربيون في نقدهم لتراثهم النحوي، فقد لخصها عبده الراجحي فيما يأتي(الراجحي، 1979):

1. أن النحو العربي قد تأثر بالمنطق الأرسطي منذ مراحله الأولى، وأن هذا التأثر صار طاغيا في القرون المتأخرة، وقد أدى ذلك إلى أن يكون النحو العربي "صوريا" وليس "واقعيا"، ومن ثم اهتم بالتعليل والتقدير والتأويل، ولم يركز درسه على الاستعمال اللغوي "كما هو".
2. أن النحو العربي لم يقعّد للعربية كما يتحدثها أصحابها، وإنما لعربية مخصوصة تتمثل في مستوى معين من الكلام هو في الأغلب –شعر أو أمثال أو نص قرآني، أي أنه لم يوسع درسه ليشمل اللغة التي يستعملها الناس في شؤون الحياة وإنما قصره على اللغة الأدبية (...)، وقصر الدرس النحوي على هذا المستوى من اللغة أفضى به إلى وضع قواعد العربية على أساس من النصوص المختارة، مما أبعدهم عن الاستعمال الشائع في هذه اللغة، ولم يكن مناص من أن يواجهوا نصوصا من هذا المستوى الأدبي تخالف ما وضعوه من قواعد، فاضطروا إلى اللجوء إلى التأويل والتقدير واعتساف التفسير، والاحتكام إلى (الضرورة أو إلى الشذوذ)، بل إلى (وضع) نصوص تسند بعض هذه الأحكام.
3. أن النحو العربي مع تحديده لمستوى اللغة التي يقعّدها حدد أيضا بيئة مكانية وزمانية لهذه اللغة، فهو لم يسمح بالتقعيد إلا على اللغة المستعملة في بوادي نجد والحجاز وتهامة ومن قبائل مخصوصة لم تتأثر بحياة الحضر أو بالاتصال ببيئات لغوية أخرى (...) وهذا التحديد للمكان صحبه تحديد آخر للزمان، فحددوا عصر الاستشهاد بآخر العصر الأموي لما نعرف من عزوفهم الأخذ عن لغة العصر العباسي التي تعرضت لتأثيرات كثيرة من حضارات مختلفة، وهذا التحديد الزماني قد يكون سببا أيضا في امتناع معظم النحاة عن الاستشهاد (بالحديث) لجواز روايته بالمعنى ولكثرة الرواة (الأعاجم) بين المحدّثين. ويقرر الوصفيون أن هذا الأصل من أصول النحو العربي جعله نحوا لا يمثل العربية وإنما يمثل جانبا واحدا منها، فهو لا يصور إلا هذه العربية التي حددوها مكانا وزمانا، ومعنى ذلك أنه نحو ناقص لا يقدم قواعد الكلام العربي في بيئاته المختلفة.
4. أن النحو العربي لم يميز حدودا واضحة لـ "مستويات التحليل اللغوي"، إنما اختلطت فيه هذه المستويات اختلاطا شديدا.

غير أن ما يُلاحظ حول الوصفيين العرب -في نظر مصطفى غلفان- هو أنهم لا يحددون الإطار النظري الذي يشتغلون فيه على وجه الدقة، فمعلوم "أن اللسانيات الوصفية أو البنيوية اتجاهات ومدارس متعددة تتفق في أمور وتختلف في أخرى. غير أن الدارسين العرب لا يهتمون بمسألة التحديد المضبوط للإطار النظري الذي يشتغلون فيه ويوظفونه في تعاملهم مع اللغة العربية"(غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة، 2006).

4. 2 المنهج التأصيلي:

يسعى أصحاب هذا المنهج أن يؤصلوا لبعض جوانب النظرية النحوية العربية من خلال مقابلتها بنظيراتها من النظرية اللغوية الحديثة، وهذا المنهج التقابلي تختلف إجراءاته عند الدارسين العرب،فقد "يتسع عند بعضهم للمقابلة بين جوانب من نظرية النحو العربي، وجوانب من مناهج النظر اللغوي الحديث كما في

بعض أعمال الدكتور نهاد الموسى. وقد يضيق عند بعض أصحاب الاتجاه التأصيلي فيصير مقابلة بين جوانب من نظرية النحو العربي، وجوانب من منهج لغوي حديث كالمنهج التحويلي التوليدي كما في أعمال الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، والدكتور عبد القادر المهيري، وبعض أعمال الدكتور ميشال زكريا"(الملخ، 2000).

ويمكن أن يتحقق هذا المسعى عند التأصيليين العرب من خلال "الكشف عن جوانب من التفكير اللغوي عند العرب تتفق وعلم اللغة الحديث سعيا وراء تأصيل هذا التراث وفق نظريات علم اللغة تمهيدا للكشف عن نظريته الأصيلة"(الملخ، 2000)، حيث يبرز ذلك فيما قدمه نهاد الموسى الذي يعد من رواد هذا المنهج من اللسانيين العرب، فقد دعا إلى ضرورة ربط الدرس اللغوي العربي بنظيره الغربي الحديث لأن ذلك "يسعف في تحديد إحساسنا بالنحو العربي في مفهوماته، ومنطلقاته، وأبعاده بعد طول إلف به في لغته الخاصة، ومصطلحه الخاص، ومنهجه الداخلي"(الموسى، 1987).

كما يمكن أن يتحقق أيضا من خلال محاولة إثبات "وجود نظرية دقيقة في أصولها ومفاهيمها في النحو العربي الأصيل فيما تركه لنا أمثال الخليل وسيبويه ومن تلاهما ويتضح ذلك بإعادة قراءة التراث ليس على ضوء النظريات الحديثة فقط، وإنما بدراسة إبستمولوجية (معرفية) دقيقة لمفاهيم النحاة، وتصوراتهم، وطرق تحليلهم، وبدون إسقاط أي تصور آخر لتصور النحاة العرب المتأخرين أو تصور الغربيين لها"(صالح، 2012)، وهو المنحى الذي انتهجه الحاج صالح فيما قدمه من جهود لسانية فيما يعرف بالنظرية الخليلية الحديثة. ومن يتتبع الأبحاث الخاصة به يلمس عنده هذا الاتجاه نحو إثبات أصالة القضايا اللغوية العربية والنحوية منها خاصة، وما نسبته نظريته اللغوية إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي دليل على هذا التوجه، فقد لاحظ حسن خميس سعيد الملخ أن عبد الرحمن الحاج صالح قد اتبع -من أجل إثبات دقة النظرية النحوية عند النحاة المتقدمين- طريقتين؛ الأولى بتتبع تاريخ علم اللسان من أقدم الإشارات التاريخية له حتى العصر الحديث، ورصد التطور النظري المنهجي في كل عصر. وكان هدفه من هذا التتبع إثبات أن نظرية النحو العربي عربية في جذورها وأصولها، أما الثانية فتتمثل في تحديد الأصول أو الأنظار العلمية التي بنى عليها نحاة العربية نظرية النحو العربي، وهي الأنظار التي توصل إليها علم اللسان الحديث، لا سيما المدرسة التحويلية، وقد استخلص من ذلك أن هذه الأنظار هي منطلقات النحاة الأوائل كالخليل وسيبويه، وهي أطوع نظرية في الصياغة الرياضية الحاسوبية للنحو العربي، ولذلك فإنها تتجاوز كل النظريات اللسانية الوصفية الحديثة وتلتقي بالنظرية التوليدية التحويلية(الملخ، 2000).

4. 3 المنهج التفسيري:

ويسميه باحثون آخرون كحافظ إسماعيلي علوي ومصطفى غلفان بالمنهج التوليدي أو اللسانيات التوليدية، وأهم من يمثل هذا الاتجاه في الدرس اللغوي العربي كل من محمد علي الخولي، ومازن الوعر، وعبد القادر الفاسي الفهري.

فالنظرية اللسانية عند الفاسي الفهري هي "بناء عقلي يتوق إلى ربط أكبر عدد من الظواهرالملاحظة بقوانين خاصة تكوِّن مجموعة متسقة يحكمها مبدأ عام هو مبدأ التفسير. ويمكن تمثلها كمجموعة من المفاهيم الأساسية ومجموعة من المسلمات تُسْتنتج منها النتائج التفسيرية"(الفهري، 1988)، أما التفسير عنده فهو "مفهوم شامل يفسِّر النظام اللغوي من حيث المفاهيم النحوية كالحالة الإعرابية، والتطابق، والتقدير، والحذف، والزمن. ومن

حيث اللوازم المعجمية، كالمعنى، والتعدية، واللزوم، وصيغة الفعل"(الملخ، 2000).

ومن أجل تحقيق ذلك، فإن الفاسي الفهري لا يرى ضرورة في توظيف التراث حيث إنه عاب على الوصفيين الذين انتقدوا القدامى، وقالوا إنهم أفسدوا النحو بمفاهيم المنطق التي أدخلوها عليه، ولكنهم مع ذلك، احتفظوا بمعطيات القدامى ولم يحاولوا وصف لغة أخرى بالاعتماد على نصوص شفوية ومكتوبة جديدة؛ "ومشكل المعطيات جرّ عليهم مشكل المنهج. فاستعمالهم لمعطيات القدماء جعلهم في كثير من الأحيان سجناء المنهج (...) مع أنه لا ضرورة منهجية ولا منطقية تفرض الرجوع إلى فكر الماضي وتصنيفاته ومفاهيمه لمعالجة مادة معينة"(الفهري، 1988).

بل إنه يصل حد الاستغراب "حين نجد جلّ اللسانين العرب لا يعون أن الطرق الاستكشافية الحديثة لا تمكّننا فقط من معرفة معطيات اللغة العربية الحالية، بل أيضا من معرفة معطيات اللغة العربية القديمة ومعرفة هل المعطيات التي أتى بها النحاة معطيات فعلية أم لا"(الفهري، 1988). وقد استمد الفاسي الفهري نموذجه التفسيري عن أعمال الأمريكية بريزنانBresnan التي أدخلت تعديلات على مفاهيم تشومسكي Chomsky.

أما محمد علي الخولي فقد حاول في كتابه "قواعد تحويلية للغة العربية" أن يستخرج "قواعد تحويلية تستطيع أن تفسر العديد من جمل اللغة العربية من غير أن يقترحها بديلا عن القواعد التقليدية"(الملخ، 2000).

فيما اعتمد مازن الوعر في نموذجه التفسيري على "تصميم نظرية لسانية عربية حديثة بدمج ما سماه المنهج اللساني الذي وضعه العرب القدماء والمنهج التصنيفي الذي وضعه عالم الدلاليات الأمريكي (ولتركوك) والمنهج التوليدي التحويلي الذي وضعه (تشومسكي) في صورته الحالية له في 1980-1981م"(الملخ، 2000).

ومهما يكن من أمر هذه المحاولات اللسانية العربية، من حيث منطلقاتها النظرية أو ما تهدف إلى تحقيقه أو إضافته إلى الدرس العربي، فإنها استطاعت إلى حد ما أن تُعرِّف القارئ العربي بما جرى ويجري من مستجدات في البحث اللساني الغربي، وسلّطت الضوء على المناهج اللسانية الغربية ونقلت إجراءاتها النظرية كما حاولت تطبيقها على اللغة العربية أو البحث عن أصولها فيما قدمه العرب القدامى، فقد حظيت اللغة العربية في كنف هذه المحاولات بقدر بكثير من الاهتمام، "فعولجت بأحدث النماذج والنظريات اللسانية الحديثة والمعاصرة في جميع مستوياتها الصواتي والصرفي والتركيبي والدلالي والتداولي"(السعيدي، 2007).

كما أبرزت هذه المحاولات الاهتمام الكبير الذي أولاه اللسانيون العرب باللغة العربية، ومحاولة تقديمها في ثوب جديد يجعل من هذا التناول يكتسي صبغة العلمية والدقة ومحاولة التميز ومسايرة الركب في الأبحاث اللسانية المعاصرة، فقد "قدموا حلولا لأعقد المشاكل على مستوى البحث اللساني (...) وظهرت اتجاهات في اللسانيات العامة العربية الحديثة في النصف الثاني من القرن العشرين، منها ما استند إلى الفكر اللغوي العربي القديم، ومنها ما استند إلى النظريات اللسانية الحديثة في مختلف اتجاهاتها (...) في محاولة لتأسيس فكر لساني عربي جديد"(السعيدي، 2007).

لكن،وعلى الرغم مما بُذل من جهود في هذا الصدد، إلا أنه لم تصل بالدرس اللساني العربي الحديث إلى المستوى المرجو، ويُرجع الدارسون ذلك إلى جملة من الأسباب لعل منها أننا "لا نجد في خطابات اللسانيات العربية بأنواعها المتباينة مفهوما منهجيا محددا وتصورا مضبوطا وواضح المعالم للغة العربية بوصفها

موضوع لسانيات العربية (...) فاللسانيات العربية اليوم في حاجة إلى تدوين وعصر احتجاج جديدين يتلاءمان وواقع اللغة العربية ويسايران ما وصل إليه البحث اللساني عالميا"(غلفان، اللسانيات العربية أسئلة المنهج، 2013).

وقدأرجعالحسن السعيدي ذلك إلى الأسبابالآتية(السعيدي، 2007):

- عدم تجاوز التصور العربي الحديث لنحو اللغة العربية القديم، بتقديم بديل متكامل.
- عدم بلورة فكر لساني قادر على التأثير في الوضع اللغوي العربي المعاصر.
- عدم فعالية تعليم اللغة العربية سواء للناطقين أو لغير الناطقين بها.
- عدم وجود وصف متكامل للغة العربية يراعي جميع مستويات الدرس اللساني.
- وجود انفصام بين النظرية والتطبيق.

5. آفاق الدرس اللساني العربي:

في ظل ما سبق، ومن خلال تشريح واقع الدرس اللساني في الوقت الحالي الساعي إلى المزج بين مختلف التخصصات العلمية، فإنه يمكن استشراف مستقبل الدرس اللساني العربي، ولا يتأتى ذلك إلا بتوفر مجموعة من المقومات التي تجعل من الدرس اللساني العربي المعاصر مسايرا لما يعرفه نظيره الغربي، أو على الأقل مسايرا للتطورات الحاصلة في البحث اللساني الحالي.

فمن أجل تقويم مسار البحث اللساني العربي، قدم مصطفى غلفان مجموعة من الشروط والمقومات التي تجعل منه خطابا علميا منهجيا مستجيبا لمقومات العصر، ويفتح آفاقا جديدة، وحسب غلفان فإن الأمر يقتضي الاعتناء بثلاثة قضايا أساسيةتخص البحث اللساني العربي، وتتمثل في الآتي(طيبي، 2019):

- العودة إلى جوهر العمل اللساني بتحليل اللغة العربية من حيث هي بنيات صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية ومعجمية.
- ضبط المصطلح اللساني العربي وتوحيد استعماله.
- إعادة النظر في تدريس اللسانيات في الجامعات والمعاهد العليا في الأقطار العربية.

وكما هو واضح، فإن كلا من العناصر الثلاثة التي أشار إليها غلفان تشكل قضية جوهرية في البحث اللساني العربي خاصة، وتمثل مشكلة في حد ذاتها ينبغي الوقوف عندها ومعالجتها بدقة، فإذا تحقق ذلك أصبح أمر الوصول إلى ضبط البحث اللساني العربي موضوعا ومنهجا أمرا يسيرا.

كما يحدد مازن الوعر آفاق اللسانيات العربية، ويحدد الإطار الذي يمكن أن تتجسد فيه، وعن مقومات ذلك، ويمكن تلخيص رأيه في الآتي(طيبي، 2019):

- الاهتمام باللسانيات كعلم قائم بذاته في جامعات العالم العربي ومحاولة توسيعه وتطويره ووضع المبادئ الأكاديمية له وجعله مادة مستقلة بنفسها.
- إنشاء كليات قائمة برأسها في جامعات العالم العربي تدعى كليات اللغات والعلوم اللسانية الحديثة يكون فيها فرع اللسانيات قسما بذاته وهذه الكلية ينبغي أن تتألف من (قسم اللسانيات الحديثة، قسم دراسة اللغة العربية الحديثة، وأقسم اللغات الأجنبية العالمية).
- يتمحور رأي الوعر أساسا على الاهتمام باللسانيات في إطارها الأكاديمي وتكوين باحثين متخصصين في هذا الحقل من أجل الرقي بهذا العلم وجعل له المكانة التي تنبغي له، حيث إذا استطاعت الجامعة العربية تكوين باحثين مختصين في اللسانيات، فإن

ذلك يؤدي حتما إلى إنجاز بحوث أكاديمية متخصصة وجادة وتتميز بالبعد المنهجي المنضبط والمتخصص، وكذا الضبط في الموضوعات، فتكون البحوث خالصة بالدرس اللساني وإن كان التوجه الحالي يرنو نحو المزج بين مختلف التخصصات فيما أصبح يسمى بالعلوم البينية.

6. خاتمة:

كان ما سبق محاولة تشريح واقع المناهج اللسانية العربية من حيث ظروف نشأتها المرتبطة أساسا بانتقال اللسانيات الغربية إلى الثقافة العربية، وكيفية تأثر البحث اللساني العربي الحديث بالمناهج اللسانية الغربية، فتأثير اللسانيات الغربية في نظيرتها العربية أمر بيّن.

ثم حاول المقال النظر في آفاق البحث اللساني العربي في ضوء التطورات الحاصلة في البحث اللساني المعاصر إن من ناحية المنهج أو المواضيع أو حتى كيفية التعاطي مع مختلف القضايا اللسانية خاصة مع التداخل بين تخصصات البحث المختلفة.

ومن خلال ذلك فإن محاولة استشراف مستقبل البحث اللساني العربي أمر في غاية الأهمية، إذ يساعد ذلك في التخطيط السليم والسعي لتوفير الإمكانات وتهيئة الظروف المساعدة من أجل الرقي بالدرس اللساني العربي وجعله ندا لنظيره الغربي.

المصادر والمراجع:

الراجحي،ع (1979) النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج .بيروت، لبنان: دار النهضة العربية.

السعيدي،(2007) .،نوفمبر (21- 22) .كلمة اللجنة التنظيمية .مختبر التواصل وتقنيات التعبير.

الفهري،ع .ا .(1988) .اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية.(ط 2) .الرباط،المغرب.

الملخ،ح .خ .(2000) .نزرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين.(ط 1) .عمان،الأردن:دار الشروق للنشر والتوزيع.

الموسى،ن .(1987) .نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث.(ط 2) .عمان،الأردن : مكتبة وسام.

خليل،ح .(1996) .العربية وعلم اللغة البنيوي . القاهرة،مصر :دار المعارف الجامعية.

صالح،ع .ا .(2012) .منطق النحو العربي . الجزائر،الجزائر:موفم للنشر.

طيبي،غ .(2019) .اللسانيات العربية :الواقع والآفاق قراءة في تصور "مصطفى غلفان ."مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية،.(03)16

علوي،ح .إ(2005) .،أكتوبر .(النحو العربي واللسانيات الوصفية .مجلة فكر ونقد)ع (72).غلفان،م .(2006) . اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة (.ط1) .(الدار البيضاء،المغرب :شركة النشر والتوزيع المدارس.

غلفان،م .(2013) .اللسانيات العربية أسئلة المنهج (. ط 1) .عمان،الأردن :دار ورد.

غلفان،م.(د.ت) .اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس لبنظرية والمنهجية .الدار البيضاء،المغرب :سلسلة رسائل وأطروحات جامعة الحسن الثاني عين الشق.

موسى،ع .م .(2002) .مناهج الدرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين .عمان،الأردن :دار الإسراء للنشر والتوزيع.